لما قرأت نيتشه

للناقد الفرنسي : اميل فاجيه

من أعضاء الاكادمية الفرنسية

— ٣ —

لم تكن الاديان من المسائل التي خصها « نيتشه » بالبحث والتمحيص اكثر من غيرها . الا أنه مع ذلك قد شملها بنظره وأصدر فيها حكمه .

تساءل عما اذا كان الاعتقاد بالخوارق وبالله وبخلود الروح قوة للانسانية أو ضعفاً : وعما اذا كانت الجماعات البشرية تصح أو تمرض بالميتافيزيقيات والاديان . ترى هل تقوى الاديان البشر أم تضعفهم ؟

لقد أجاب « نيتشه » بان الميتافيزيقيات والاديان دليل ضعف في الانسانية . وانها تزيد في ذلك الضعف الذي يحيق بالانسانية منها مقدار مايزداد الاعتقاد بها . وليس في وسع أي انسان أن ينكر أن الاديان تولدت من روعة الجهلاء وهولهم بازاء قوى الطبيعة . اذن فالاديان نشأت في الاصل من ضعف الانسان . غير انها صارت فيما بعد حسنة محمودة . والمراد ان الناس قد افترضوا وجود قوى طيبة وكريمة الى جانب القوى العدائية الهائلة التي تحيط بهم . ألسنا نرى من حولنا وجوه الضعفاء التي ترتعد وتتحلق وتبتهل خاشعة ؟

ان الدين حاجة في الانسان خلقتها فيه عاطفة الضعف أو غريزة الضعف . في الانسان « حاجة الى الدين » وهذه الحاجة خلقت العضو الخاص بها . وما دامت الحاجة موجودة فالعضو باق (العضو ووظيفته) ففي أصل كل دين — من الوجهة التاريخية — وفي صلبه من الوجهة الادبية ، نقص في الارادة أو ضعف في الارادة . وليست الارادة في احتياج الى اليقين لانها تتجه الى عرضها من تلقاء نفسها . أما الدين

فهو فى حاجة الى اليقين . الارادة تندفع بطبيعتها الى غايتها ولكن فى الدين دافعا خفياً هو الخوف .

ولا يخفى أن ترقى العلوم الطبيعية وتعميم تعليمها قد أضعفا من العقيدة الدينية فى أوهام الناس . فان تلك العلوم قد فسرت الظواهر الطبيعية : كالصواعق والعواصف والامطار والرعد ووضحت أسبابها

فالذين يحسبون أن الحاجة الى الاعتقاد ضرب من الحاجة الى العمل : يخطئون . ان الحاجة الى الدين لا تخرج عن الحاجة الى التوكل والركون الى الراحة والهجوع . ان المتدين يحتاج أبداً الى عضد يتوكل عليه . قل ، نيتشه ، انما تقاس درجة القوة الكامنة فى دياناتنا أو بعبارة أصح درجة الضعف فيها . بعدد المبادىء التي يأبى الدين ان يراها متزعزعة لانه يستخدمها كعضد وسند . وكذلك خالق الانسان : تفند أمامه احدى مواد دينه الف مرة ويأبى إلا أن يسلم بحاجته الى الاستمرار فى تصديقها واعتبارها حقيقة لا مرية فيها . . . هذه الرغبة فى التصديق انما هى أيضا رغبة فى سند يتوكل عليه . وبالاختصار هى غريزة الضعف فى الانسان . الانسان الذي وإن لم يكن هو الخالق للديانات من كل نوع . يعد على الاقل الحافظ الامين لها .

ويحوم حول جميع تلك المبادىء الوضعية غيم كالح من التشاؤم . وسواء أكان ذلك نتيجة الملال والتعب أو الاعتقاد بالقضاء والقدر أو الخيبة أو الخوف من خيبة جديدة أو سوء الطبع أو الافراط فى الفوضى (الفوضى الداخلية والعجز عن حكم النفس وضبطها فى شدتها وجموحها) أو ظواهر عاطفة الضعف من كل نوع . . . فان الدين أبداً مطلوب والحاجة اليه دائما ماسة مقدار ما يكون ضعف الارادة فى الانسان . . . ومن هنا يمكن استنتاج أن قوة الانتشار التى تمتاز بها الديانتان العظيمتان فى العالم: البوذية والمسيحية — انما ترجع فى الاصل الى مرض عضال فى الارادة . .

وبمقدار ما يكون فى الانسان من ضعف يكون معتقده فان ظروفه الصحية وما يملكه من القوى العليلة والنشاط الكامن تدعوه الى اللواذ بالله والاستعانة به . وكلما شعر المرء بضعفه ازداد إيمانه بالدين .

ولقد يؤتى الانسان القوة فينسبها الى الله . كذلك هو مدفوع الى الدين من جانبي

القوة والضعف . قوته الحادثه وضعفه العادى . ومن شأن الحالة الاولى أن تشعره بالحالة الثانية .

هذا رأى فردريك نيتشة فى أصل الاديان وهو يتلخص فى أن ضعف الارادة فى الانسان أساس كل دين .

والى تلك الغريزة المزدوجة الخالقة للاديان، يضاف الخالقون أنفسهم - ونعنى بهم الذين يدبرون الغريزة الدينية . أولئك يقومون بعمل بسيط فى ذاته ولكنه عظيم النتائج . إنهم يرسمون نظاما لحياة الشعب ويصلون بينها وبين الله ويجعلون حياة الشعب مقيدة بالقاعدة التى يرسمونها (التعاليم والطقوس) ويقنعونه بأن لحياته العادية معنى هو معنى جميل الهى خفى مستحب عند القوة الهائلة التى تدبر العالم وانه مرغوب فيه منها حائز لرضاها . وبذلك يصبغون حياة الشعب العادية بصبغة إلهية .

ولما ألف بنو اسرائيل حياة السلب والنهب . جاءهم رجل فدعاهم الى الله الذي اصطفاهم دون سائر شعوب الارض وخصهم بحبه ورحمته وأوحى إليهم انه يرضيه أن يرى تلك الشعوب غنيمة لهم مستذلة لسلطانهم . اذ ذاك صار لحياة الاسرائيليين - وهم شعب سلب ونهب - معنى جميل . وصار ذلك المعنى خيرا أدبياً ومثلا أعلى تهون الحياة من أجله . وجلى أن ذلك الرجل صاحب تلك الدعوة الى الشعب الاسرائيلى قد سما بغريزة الدين وحياهم السعادة والخير .

ثم ماالذي فعله « بوذا » ؟ لقد رأى من حوله فئة قليلة مبعثرة فى كل طبقات الشعب من الصالحين الكسالى . فلم يقنعهم بأكثر من أن الكسل حالة سامية . حالة إلهية . وأن الرغبة فى الهجوع وفى العدم اسمى فكرة للعالم وأنه ليس لله سواها . وبذلك خلق من الجمود ديانة وأنه حين أوتى هذه الفكرة البسيطة كان عبقرياً فلقد أدرك فى الحقيقة انهم أناس لايفهمون أنفسهم ، ولكى يكون لامرء صاحب رسالة دينية يلزم أن يكون ذا ألمعية سيكولوجية وذكاء خارق فى تفهم طبقة ذوي النفوس المتوسطة التى لم يعترف أفرادها أنهم من نوع واحد . وأولئك لايؤلف بينهم غير صاحب الرسالة الدينية . ومن أجل ذلك كان تأسيس الديانة أشبه بحفلة طويلة يتعارف فيها الناس ،

ومتى أسست الديانة بهذه الطريقة ونظمت انتقلت بالعادة والاقتداء والوراثة

وبرهنت على وجودها وتأيدت بما يصدر عنها من الافعال الدالة على البسالة الحقيقية ولما كانت القوة تولد غالبا من الضعف ينتهى الامر بالديانة الى السيطرة على الالباب وأن تكون ذات نفوذ أدنى قوى

ولكن هل نحن فى حاجة الى القول بأن الاستشهاد فى سبيل الدين لا يدل على شيء؟ لعله يدل على أن واحدا من الناس أشد اقتناعا من غيره بالديانة. على أن الاقتناع ليس دليل الحقيقة .

اذن فالشهداء لا يدلون على شيء قط ولكنهم يفتنون ويبهرون بحوادثهم . وهم ضروريون لانتشار الديانة . أنهم الاعمدة الحقيقيه التى لا تتزعزع للمعبد ! , قلما يبرهن الشهيد على حقيقة الديانه . ولقد كان تعذيب الشهداء مأساة كبرى فى التاريخ مأساة اجتذبت الافئدة وأثرت فى النفوس . إذن هل يعد الصليب برهانا ؟ ،

كذلك تمد الديانة سلطانها على جزء من الانسانية تؤيدها الاعمال الرسمية وطقوس الاعتراف والاخلاص والتضحية . ولا يهدمها غير ظهور ديانة أخرى مطابقة لحالة جديدة ولكنها دائماً حالة ضعف فى الانسانية أو فى جزء منها .

ولنضرب مثلا للطريقة التى تقوم بها الاديان : محاولة « ديانه الالم الانسانى » التى لا تخرج عن كونها ضربا من « دين الانسانية » ان تحل محل سائر الديانات الاخرى ليت شعرى ماهى تلك الديانة التى تدعو إلى الشفقة والرحمة ؟ نقول انها بقية من الديانة المسيحية . وهو أمر واضح . ولا بد من أن يكون كذلك . فانه يجب ان تكون الديانة الجديدة متفقة مع الحالة النفسية العامة . بل لابد من أن تكون تلك الحالة النفسية العامة ذاتها معروفة فى صيغة الفكرة الدينية .

على أن هذه الديانة الجديدة — ديانة الألم الانسانى — نفى صريح للمسيحية فهى لا تدعو إلى الله بل انها لا تفكر مطلقاً فى الله . ومن الممكن أنها لا تؤمن به وتنكر فكرة الدولة وفكرة العدالة المعترف بها فى ايامنا . وتنكر السلطة وكل فكرة تصدق بها المسيحية . هذا إلى أنها تعتمد أيضاً على جانب الضعف الانسانى وتهيب به وتصبغه بالصبغة الالهية وتتفق مع حالة الكلال والاعياء التى سادت أوربا من بعد حقبة الحروب والغارة الالمانية والصلح المسلح . ولقد جعلت من ذلك الكلال والاعياء فضيلة : فقالت , اليوم لا دم يراق ولا حرب ولو كانت عادلة ان

الرحمة كفيلة بوقف المذابح !» ومعنى ذلك فى الواقع «أيها الملأ ! هل أنتم جبناء ؟ حسنا ؟ دعونى اعلنكم بسر الهى يسركم : وهو انكم على حق »

تلك هى الطريقة التى يحاول بها الدين الجديد أن يهدم الدين القديم و يوفق احيانا إلى النجاح .

وهناك شيء واحد يستطيع هدم جميع الاديان دون أن يحل محلها دين آخر وهو هدم كل منهو خارق للطبيعة . وانما تتلخص رسالة نبى المستقبل فى أن « لاوجود لله » وهى أول كلمة يتلفظ بها « زاراتوسترا ».

نقول إنه لما تملكت « نيتشة » هذه الفكرة — فكرة نفى الخالق — تمادى فيها إلى حد أنه نسى النظرية الحيوية اليوهى أن العالم مظهر للجمال . وهذه النظرية تؤدى إلى الله . بل انها على الاقل تنطوى على شيء الهى . فاذا كان العالم مظهر جمال فلا بد من وجود صانع أو نفترض أن العالم نفسه صانع . أى صانع نفسه . وهو مايزيد فى الوهية النظرية .

على أن « نيتشة » حين تحمس لفكرة الانكار نفى جمال العالم . ولا بد من الاعتراف بانه لم يكن فى وسعه ان يفعل غير ذلك . نفى نيتشة عن العالم النظام والجمال والحكمة فقال انه ليس بالكامل ولا بالجميل ولا بالشريف . ولا ينبغي أن يكون شيئاً من ذلك . ولا يسعى بتاتاً إلى محاكاة الانسان ! . .

نترك رأي « نيتشة » المتناقض فى الوجود الذى نفى عنه الذكاء والحياة على اعتبار انه أشبه فى نظامه ودقته بالمجموعة العضوية وقال انه يتمزز من هذا التشبيه وايد أن من أعظم الشرف وصف العالم بالماكينة « ماشين » لانه لم يصنع لغاية وانكر أن فى الطبيعة قوانين وقال إنه ليس هناك سوى ضرورات الخ — نترك رأيه فى الوجود لكى نكمل رأيه فى الأديان .

يعتقد فردريك نيتشة ان الأديان لاتتلاشى إلا إذا استطاع الانسان ان يدرك او ان يرى شيئاً آخر يختلف عنه . صوره تباين صورة . قال « كيف يتاح تأويل الأشياء مادام الانسان يجعل من كل شيء صورة مماثلة له ؟ ونحن متى وصفنا الاشياء لانعرف الا أن نصف انفسنا . وما دام الانسان لايرى ولا يعرف غير نفسه بحجة

تفسير الأشياء فسيظل خاضعاً للاديان الناشئة عن ضعفه الطبيعي والتي تتغذى وتعيش من ضعفه الادبي .

* * *

لما قيل لنيتشه ان الناس تدمضى عليهم حين طويل من الزمن وهم يؤمنون بخلود الروح الانسانية . وان هذا الايمان ، ارادة فى القوة ، وفى طول البقاء وانه حلم اولمبي يدل على عظمة الانسان ورغبته فى أن يكون اشبه بالآلهة (اولمبيا !) . . . . . أجاب الفيلسوف : قد يكون هذا ممكناً . غير أن لارادة الانسان فى القوة اخطاء مما أيضا . وهذه الارادة التى تزعمونها ليست فى الواقع إلا ضعفاً . هى الخوف والارتياع من الموت . ومن ذلك الخوف ينشأ الاعتقاد فى خلود الروح أو « الارادة فى القوة » كما تصفونها . والانسان مرغم حين يؤمن بخلود الروح على أن يتخذ قبل موته مذهبا أو شيعة دينية ينتمي اليها . لأن سلامته ترتبط بذلك المذهب الذي يختاره

ولقد كانت كراهة « نيتشة » للمسيحية سبباً فى مقتل سائر الاديان والميتافيزيقيات كان فردريك نيتشة شديد المقت للمسيحية . عدواً لها . وفى اعتقاده أن المسيحية ليست شيئاً آخر سوى ضرب من تسلط الطبقة العامة . وهذا حق فى الواقع . ومن أجل ذلك صار عدواً ألداً للمسيحية . ورأى فيها عائقاً دائماً لآرائه ومبادئه . وان المسيحية هى تسلط الطبقة العامة أى ما أسماه نيتشه ازدراءاً بالقطيع المنظم .

وفى رأى الفيلسوف الالمانى أن تلك الديانة قد مهد السبيل لها « سقراط » و « افلاطون » اللذان هيآ العقول - برغم آرائهما السياسية - الى عدم النظر للاشياء إلا من الوجهة الخلقية واعتاد الأن يزدريا حق القوى . حق الاصلح . وينكراه . وان يجبرا جميع الناس على الخضوع لقاعدة واحدة .

وكذلك « البوذية » أو ما تسرب منها قد هيأت السبيل للمسيحية . والبوذية هى أولى الديانات التى قامت على طبقة العامة ودعت الى حظيرتها وديانتها جميع طبقات الناس على السواء . ثم من أدعى النبوة من العبرانيين الذين كانت حركتهم شعبية صريحة . حركة قوامها العامة وغرضها ديموقراطى مبنى على المساواة .

وكل هذه التمهيدات التى هيأت السبيل للمسيحية بمقوتة من نيتشه . على أنه كراهته

للمسيحية اشد . والطريقة التي نشأت بها المسيحية معروفة . فان كل حقير ومنحط وعليل وسافل في المجتمع قد دعي الى أن يكون قديساً لكي تسبل عليه الحلة الآلهية. وان يكون عضواً في أمة الله . واحتقر كل ماهو حي وقوي وجميل وشريف في المجتمع . وبالجملة الأبلة في الحياة وفي المجتمع .

قال فردريك نيتشه ، ان المسيحية دين جدير بالعصر القديم الذي هرم . وانها لاحوج للدنيات التي شاخت وفسدت . وعلى هذه الدنيات المنحطة وحدها تستطيع ان تبسط نفوذها . في العصور التي غمضت فيها الأعين وسدت الآذان بالطين بحيث لاتصغي إلى صوت العقل والفلسفة ولا تسمع الحكمة الحية المتلفعة بأكفان تلك الحكمة تحمل اسم « ابقطاط » أو « ابيقور » ـ في تلك العصور يمكن أن يكون رفع الصليب والانذار بالقيامة كافيين للتأثير في سوق الشعوب المنحطة الى غاية ملائمة لها فلنفكر في روما التي صدحت فيها أناشيد « جوفنال » ولنفكر في عيد « فينوس » لكي ندرك معنى رفع الصليب أمام العالم . . .

لقد كانت أغلب الشعوب في ذلك الزمن تولد بارواح قد ارتوت حتى الثملة من اللذات وبمشاعر واحساسات قد شاخت واعتراها الهرم . . . . ان هذه المسيحية باعتبارها نغمة الزمن القديم صادرة من ناقوس متصدع عليل . هذه المسيحية حتى في نظر الذي لايدرسها الآن إلا من الوجهة التاريخية فقط هي بلسم للاذن . غير أنها أيضاً سم زعاف للشعوب العذراء الشابة . فان بذورها حين بذرت في نفوس الجرمانيين القدماء . أولئك الأبطال ذوي الارواح القوية استحالت عقيدة الخطيئة والهلاك الابدي إلى سم بل إلى اختلاط وفوضى في الشعور وفي الحكم . وكانت النتيجة ان ضعفت قوى تلك الشعوب الجرمانية القوية وانحطت .

وطبيعة المسيحية ان تصبغ الضعف والأذعان والسهاجة بصبغة الهية . ومن ثم كان عداؤها للحياة وعداؤها للفن . وللمسيحية في كل زمان ازدراء للحياة ذاتها . ازدراء ممزوج بالحقد للحياة تحت لبوس الدين ابتغاء حياة أخرى اصلح أليست العقيدة التي تدعو الى حياة أخرى تقضي على هذه الحياة الحاضرة أو تجعلها مصدر شكوى وتلعنها وتدعو الى مفارقتها والرغبة في الخروج منها أو النزول بها الى حدها الادنى.

وهذا لعمري منشأ احتقار الدنيا والحقد عليها فى أصل المسيحية . انها تمقت المسرات وترتاع من الجمال واللذة وتدعو الى حالة مستقبلة اخترعتها للحط من شأن الحاضر وزيادة الرغبة فى العدم والراحة الدائمة إلى سبت السبوت ! »

انظر إلى القديس بولس وهو « باسكال اليهودى » كما ان باسكال هو « بولس المسيحى » . انظر فى ذلك الرجل الضعيف المريض الذى كان مصاباً بالصرع بل ربما كان فى ماضى حياته من المجرمين . ذلك العبد الاسير للشهوات العنيفة . لقد جعل كل همه ان يمحو الخطيئة فيه بالاتصال المتين بالله اعنى أن يلاشي الحياة فى الموت الذى هو حياة أخرى . الحياة الأخرى الوحيدة المرغوب فيها . كان كل مجهوده متجها إلى الفناء . الفنا الحاضر الذي هو الشرط اللازم والمعبود للحياة الحقيقية فى عرف المسيحية .

والى عدائها للحياة يضاف عداؤها الدائم للجمال وللفن . ومن الممكن ان يقال ان كل ماهو عدو للحياة عدو للفن . ذلك لان الحياة ترتكز على المظهر . على الفن والمثل الاعلى وهو حلم ترتكز على الاعتقاد فى مثل وهمى يتجلى فيه الجمال . مثل باهر باعث على القوة نقول إن المسيحية عدو للفن لانها لاتسلم بشيء خارج عن دائرة شريعة الخلق « مورال » وترى فى الخلق غرضها وغايتها . وهو ماينفى الفن او يقيده وينزل به الى درك الانحطاط أى يقتله . قال « نيتشة » : ليس هناك عائق يحول دون النظر إلى العالم وتفسيره من ناحية الجمال الفنى (استيتيك) البحتة سوى العقيدة المسيحية التى تأبى الا ان تكون محصورة فى دائرة الخلق (مورال) والتى تعد الفن بمبادئها المطلقة وشدة تمسكها بالله أكذوبة وتحصره فى هذه الدائرة أي انها تنكره وتنفيه وتقضى عليه وتخصه باللعنة . وبالاختصار لاتؤمن المسيحية بالفن مطلقاً . تنكر كل قيم الجمال . انها عدمية « نهليست » بالمعنى العميق للكلمة . واذا كان مذهب « ستراط » يقيد الفن بالاخلاق . ويرى انه لا بد لكل عمل انسانى من التقيد بالخلق فى غرضه إلا انه لايبطله ولا ينفيه . ولكن المسيحية تنفيه وترتاع منه وترى فيه عدماً ومتى كان المسيحى موهوباً بالذكاء ومتى كان عميقاً يدرك المسيحية ويفهمها مثل « لوثر » و« كلفن » و« باسكال » فانه ينفى الفن . اما اذا كان المسيحى وسطاً فى الفهم أو لايدرك الاثلاثة

أرباع المسيحية فانه ينزل بالفن إلى حد ان يجعله خاضعاً مستذلا للخلق مثل «تولستوي» ومتى كان المسيحي مخلصاً أو سطحياً أو حديث العهد فانه لايخلو من الغرض وبالاختصار متى كان لايدرك شيئاً فى المسيحية فانه يجعلها مقترنة بالفن كما فعل «شاتوبريان» !

وفى الحقيقة أن المسيحي انسان عاشق للموت . انسان هو ظل الفناء . انظر من حولك ترى المسيحيين من عشاق الفناء . ترى النساء والرجال الذين تملى عليهم جبلتهم الطبيعية الميل الى الفناء كأنهم مسيحيون بالاستعداد الطبيعي . والقساوسة المسيحيون اشبه الأنواع بالاقزام وبالمخلوقات التي تأوى بطن الأرض .

وتدعى المسيحية أنها اعادت الطبيعة الانسانية صورة أخرى . وفى الحقيقة انها افسدتها . فلقد خلقت عواطف جديدة ليست من الانسانية فى شيء وأنها حين قضت على الشهوات احالتها عن غرضها وجعلتها شراً مما هى وأشد فساداً . وتزعم المسيحية انها قضت على الطمع الذى هو من خير العواطف الانسانية وأقربها إلى الطبيعة لانه «ارادة فى القوة» . هذه الارادة قد استحالت إلى رغبة فى غزو السماء . وقد ألقت بالانسان فى كفاح قاس عنيف ضد نفسه وضد العالم . كذلك احلت المسيحية شهوة سيئة محل شهوة طيبة . وانما تكون الشهوات سيئة متى نظر اليها بعين سيئة وشأن النفوس العامية انها ترى فى كل ماهو عدو لها مثلا سيئاً وشراً وبيلا . فالحذار من ذلك . ان العدو لازم للحياة بل لكل حياة . والمخلوق الذى يفترض انه بلا عدو انما هو مخلوق تعس حقير قريب من العدم . واخيراً فان المسيحية بقضائها على الحب واعتبارها اياه خطيئة وعدواً خفياً رهيباً قد أسبغت عليه حلة الشعر وألهته وجعلت منه لذة يحلمون بها وينشدونها برغبة وتهافت مقرون بالانتقاض والتوجس الحلو المستحب . فهى فى الوقت الذى ادعت فيه أنها هدمت الحب قد خلقته . ولما قالت انه من عمل الشيطان صار ذلك الشيطان أهم من القديسين بفضل أسرار الكنيسة وخباياها فى المسائل الغرامية . وبفضل الكنيسة صارت مسائل الحب ذات أهمية حقيقية عند كل الاوساط وأصبحت مدار الشعر وموضوعاً أساسياً للتواليف الخيالية . فالمسيحية قد جددت الطبيعة البشرية ولكن عن طريق افسادها والنزول بها الى درك

الانحطاط وعلى هذا الاعتبار يعد نيتشة المسيحية ديناً مفسداً

٥٥٥

ومن بعد الاديان نظر « نيتشه » فى العلم وطريقة النظر بالعقل « راسيونا ليسم » على اعتبار أنهما من العوائق القوية ضد مذهبه .

والعلم بادىء الامر ليس سوى العلماء . قوم استحوذت عليهم الكآبة والاستحياء واختاروا الاحتجاز واتصفوا بقصر النظر . أشد مايستغرب منهم أنهم لاينظرون الى العالم ولايتعرفون الناس ولايعلمون ماهية الانسان ولايدرون مبادىء العلم نفسه الذي يدرسونه ولا أصوله وينابيعه الاساسية ولا غايته ونتائجه تغلب عليهم الاعتقادات الباطلة . ويصبغون الأوهام بصبغة المذاهب ويهبونها قوة الصيغ العلمية . صيغ المعامل والمجامع . هم عمال المعرفة الذين لايدرون شيئا مثل عمال المصنع الذين لايعرفون نهاية العمل الذى يخرجونه . هم الطبقة الوسيطة بين الجمهور وصفوة المثقفين . على أنها لاتتصف بصفات الجمهور ولابالصفات التى تنسب الى النخبة المثقفة . وإنها لتضم من الادعياء أكثر مما يحسب على أية طبقة أخرى من طبقات المجتمع والنوع البشرى — كذلك تحدث نيتشة عن العلماء كأستاذ وفق الى التخلص من حرفة الاستاذية .

واذا نحن صرفنا النظر عن الفائدة العملية للعلم نفسه وهو مايجعل له بعض الأهمية كان خدعة كبرى . ابتدعه « سقراط » من قبل المسيح بأربعمائة سنة تقريباً . ومن قبل « سقراط » لم يكن هناك علم أو على الأقل كان الانسان البارز هو الانسان الذى يعيش بغريزته (الفطرى) وهو فى أسمى صوره الفنان أو الشاعر . وفى عهده كانت الاولوية فى عقل الانسان وفى اعتبار الناس إنما هي صورة الانسان النظرى أى الانسان الذى يريد الدليل على كل شىء ويطلب المعرفة لكى يقيم ذلك الدليل . الانسان الذى يتعلم ويرتب معلوماته وينتقد ويجعل لما يعلمه برهانا ونظريات وبالاختصار — الانسان الذى ينظر فى الموجودات بالعقل « راسيونا ليست » .

ذلك الانسان — العالم والراسيونا ليست — هو عدو مبين أيضا للفن وللحياة . ولقد عرف « سقراط » بأنه عدو للفنون وأراد « أفلاطون » بأن يطرد الشعراء من الجمهورية . قال « نيتشه » : إن أعظم ضد للنظرية الطراجيك (أي الفنية نسبة الى فن الطراغوديا

اليونانية) انما هو العلم . فان الفن يحبب الى الانسان الحياة تمثيله لها فى قوالب الجمال أما العلم فانه يعيرلونها و يجعلها باردة كالثلج حين يتراءى فى تخيلها . وما يحبه الفن يقتله العلم . ومن يفكر فى النتائج المباشرة لذلك الروح العلمى الذي يسير الى الامام دائما و بلا ميل لا يلبث أن يدرك كيف لاشى الأسطورة والميثولوجيا وكيف أنه بذلك الهدم انتزع الشعر من موطنه الطبيعي الاسمى « إيديال » وجعله ضالا كالشريد الذى لا مأوى له »

وفى الحقيقة أن سقراط صور ذلك الانسان النظرى بمذهبه الذى لا يخلو من عمق برغم أنه لا يتعدى الفكر المبدئى . على أنه مذهب خطأ بصفة جوهرية . يقول بان المعرفة أساس الخلق على اعتبار أن الانسان الذى لا يفعل الخير هو الانسان الذى لا يعلم الخير ولا يدريه . وأن المرء متى عرف الخير فانه لابد فاعله .

وهذا لعمرى خطأ محض والعكس هو الحق . إن الانسان الذي يدرى الخير لا يفعله لانه يمنع بمعرفته . وهذا لعمرى يكفى لارضاء كبريائه . ولان معرفة الخير تجعل الانسان يعتقد أنه قد فعله وانه قد أدى واجبه . والخير غريزي وهو فى الفعل . و يندر أن يوحيه الفكر أو المعرفة . ومازال فعل الخير نتيجة حركة غريزية لا صلة لها بالمعرفة . غير أن هذا الرأى أساس مذهب الانسان النظرى . قال سقراط للعالم « تعلموا وفكروا وأقيموا الدليل . فان المعرفة هى المقدرة . والمقدرة على فعل الخير . وما المعرفة والتفكير والبرهان إلا الانسان كاملا . وما بقى إنما يتعلق بالطفل . » وكان ينبغى أن يقول للناس « اتبعوا غرائزكم فانها صالحة » .

واجتهد « نيتشه » فى اقامة الدليل على أن مذهب « سقراط » مضاد للحياة . وعلى اعتبار هذا المذهب تكون الحياة شرا ويكون سقراط متشائما شديد التشاؤم .

أنشأ سقراط الانسان النظري وجعله من اضداد الانسان الذى يعيش بالغريزة والانسان الذى يحبب الحياة الى الآخرين — الفنان — وجعله يعلم و يبرهن و يرسم النظريات . وكل هذا من ضروب العبث والمحال . فان العلم قدير على أن يصدر كل ونه ولكنه عاجز عن أداء غايته . وما الذى يحض عليه العلم ؟ المعرفة . معرفة الطريقة التى يتاح لكل ماهو فى الانسان أن يدرك بها ماليس فى الانسان . إذن فهى ليست

طريقاً للمعرفة وانما هى وسيلة نعرف بها أنفسنا . ونختبر ملكاتنا فى حالة استعمالها . هى ملاحظة كيف نرى وكيف نشعر ونفكر ونقيس وكيف نقيم الدليل . ونحن الى الآن لم نتجاوز هذه الدائرة . لم نخرج عن دائرة البحث فى أنفسنا ونعرف كل ماهو منا وفينا .

على أنا حين نختبر ملكاتنا نصفيها حتى لكأنا نضعها فى أنبيق !

ولكن ماهى النتيجة التى وصلنا اليها بعد اختبار ملكاتنا وتصفيتها الى هذا الحد؟ عرفنا مقدرة تلك الملكات فى حالة استعمالها والمبالغة فى تهذيبها وحدود ادراكها للعالم . على أن معرفتنا بالعالم لم تزد . ولم نتجاوز فى دائرة المعرفة حدود أنفسنا . ولقد وسعنا مذهب « أنا » دون أن نتعدى دائرته . وأنا لانزال حين نطلب المعرفة لانخرج عن حدود البحث فى الانسان أى فى أنفسنا . ومافيء الانسان فى حدود المعرفة يمثل الدور نفسه فى هذه الكوميديا بعينها . لايستطيع أن يتأمل الاشياء إلا بالعين ذاتها تلك التى أوتيها وألفها . ثم ماالذى انتهت الانسانية الى معرفته بعد تلك الآلاف من القرون ؟ عرفت أعضاءها . ومن الممكن أن يكون معنى ذلك العجز عن المعرفة .

إن الانسان لايريد أن يخرج عن حدود « ذاته » فى تعرف الاشياء ولا يريد أن يعرف ماليس منه

إن العلم يريد أن يعرف العالم ويفسره وجيه علما حقيقيا أي كاملا ومنطقيا أو بالحري يريد أن ينتهى من تفسير اللانهاية فى الواقع . إن العلم عاجز عن أداء هذه المهمة . أنا حين نأخذ شيئا من اللانهائى لتوضيحه ندل على عجزنا لان كل جزء من اللانهائى إنما ينسب الى مالايقبل التفسير قبل أن يتم توضيح كل شيء . إذن تكون تفسيرات العلم سطحية الى حد أنها تشبه أن تكون غير تفسير . وأن كل معارف العلم ليست من المعرفة فى شيء .

العلم لعب جدى وقور ومشرف . ولكنه لايكفى لاعطاء الاولوية فى الانسانية الى الذين يلعبون وأن يعهد اليهم بمهمة الارشاد فى الجماعات البشرية . إن فى ذلك لسحراً كبيراً . ولقد يشبه المشتغلون بالعلم أولئك الذين يسرعون فى حفر بئر عمودية فى الارض فيلاحظ أحدهم أنه اذا قضى العمر كله فى الحفر لايستطيع أن يبلغ من العمق إلا جزءاً بسيطا وأن عمله لايلبث أن يكون فى آخر الأمر مضمحلا بعمل جاره ،

يدرس فالعالم والمفكر النظرى ومن ينظر فى الوجود بالعقل إنما هو انسان منحط هو نبه انسان . وأنت اذا كنت قد قرأت « فوست » وفهمت ذلك الشعر البديع فانك تدرك بلاشك أنه قضاء على ثلاثة أشياء فى الانسان النظرى . فان « فوست » قبل كل شىء هو الانسان الحديث . الانسان الذى يعسر فهمه على أغريقى سبق عصر سقراط لعمرى هو الانسان المولع بالمعرفة وبالثقافة . ولقد أدرك مافيها من غرور فقام بتجربة فى حياة العاطفة ولكنه لم يوفق كل التوفيق . وهو بعد أن استغرق فى تأمل العصور الإغريقية القديمة انتهى به الامر الى حياة العمل . إلى الحياة الفعالة الخالقة وإن كانت بعيدة عن البرهان وعن الانشاد العاطفى .

والمراد من ذلك أن مجاح « فوست » ينحصر فى الصعود من القرن التاسع عشر إلى عصر النهضة ومن عصر النهضة الى اليونان التى سبقت عهد سقراط . وهو ما يفضى اليه كل ترق حقيقى . وانما الحياة العلمية حياة النظر بالعقل هى الانحطاط . ولا يستدل من سيطرة العلم الاعلى أن القرن التاسع عشر قد انخذل عن سلطان المثل الاعلى .

لقد يكون للعلم ميزة أنه يحضنا على حب الاطلاع . ولكن حب الاطلاع آخر الشهوات . ومن يولد بهذه الشهوة انما يولد شيخا . لان الشباب لا يطلب غير الحياة والعمل . والعصر العلمى هو العصر الأخير للانسانية .

* * *

وليس ثمة وهم أشد من الرأى الشائع فى عصرنا والقائل باقتران الحضارة بالعلم . هذه لعمرى فكرة كل انسان يعتقد أنه يدرى ويفكر هى فكرة الخاصة والعامة .

يعتقدون أن الانسان المتمدين هو الانسان المثقف وهو خطأ مبين . فان الصانع أو الفنان الذى لا يدرى شيئاً مطلقا أو رجل العمل الذى يدرى بعض الدراية ويعلم الشئ القليل هو انسان مهذب ومتمدن أكثر من العالم . قال نيتشه « لقد وقع عالمنا الحديث فى شبكة الثقافة السكندرية . وهى الثقافة التى تعد الانسان النظرى مثلها الاعلى الإنسان النظرى المسلح بقوى وسائل المعرفة . والذي يعمل لخدمة العلم ويرى

فى سقراط القدوة . هذا المثل الاعلى هو المبدأ والغاية جميع طرائقنا الخاصة بالتربية . ومفروض على كل نوع آخر للحياة (الفن وحياة العمل والصناعة) أن يكافح من أجل وجوده وأن يترقى على اعتبار أنه عمل منساهل فيه لا كغاية وغرض جوهرى من أغراض الحياة . ومن الميول النفسية المروعة ان الانسان المهذب لا يعترف به الا فى ثوب الانسان المتعلم . وحتى فننا الشعرى قد نشأ فى بادئ الامر من محاكاة الامثلة العلمية . فالاغريقى الاصيل يرى مثل « فوست » لأول وهلة غير مفهوم . . .

وليس العلم هو الوسيلة الوحيدة للانتاج والاثمار . فان للافعال أثماراً ايضاً كما قال « جوته » . ولعل العلم أدنى وسيلة للانتاج . وانه ليعوق وسائله السامية ويقف حائلا دونها . انه عقيم يعوق الناس عن الاتجاه الى الينابيع الفياضة . ومن عيوبه أنه يجعل العالم بارداً كالثلج ويجففه . دون أن يؤدى غرضه المزعوم وهو تفسير لغزه وجعله (العالم) مفهوما .

وهل للعلم تلك المزية الحسنة وهى انه هادم للدين ! وهل العلم والدين حقاً ضدان !

ان العلم مبنى على عقيدة أشبه شيء بالدين أو الدين نفسه . وهو دليل على أن الانسان فى احتياج الى ديانة أى الى تصديق تصوفى وان يقوى ويعزز فى فكر الانسان ذلك الميل الى التصديق وتلك الحاجة الخارجة عن العقل والقريبة إلى الطفولة وتزيد بها الحاجة إلى اليقين التصوفى .

والحاجة إلى الدين التى اكتسبت فى عصرنا الصبغة العلمية والوضعية انما تفسرها الرغبة القوية فى الحصول على شيء ثابت مكين . الرغبة فى الحصول على عضد . وهو ما تمليه على الانسان غريزة الضعف التى مازالت الحافظ الامين للاديان والمتافيزيقيات . فالثقة فى العلم إنما هى ضرب من العبادة والتقوى . ولا يصدق الانسان الا بما يؤيد البرهان انه صحيح . ولكن لكى يعتاد هذا الضرب من التصديق المبنى على البرهان لابد له من عقيدة سابقة يوقن بها ان ماهو مؤيد بالبرهان خير مما لا برهان عليه . اذن فالعلم قائم على عقيدة أشبه بالدين .

قد تقولون إن هذا ليس دينا وانما هو مجرد الرغبة الطبيعية المشروعة فى اتقاء

الخديعة والغش . فليكن ذلك . ولكن تلك الرغبة فى اتقاء الخديعة تفرض مبدأ آخر هو أن تجنب الخديعة والحذر منها خير من الوقوع فيها . هذه الرغبة فى الحق ليست شيئا آخر سوى أنها دين .

فالعلم الذى يدعى أنه حرر الانسان والذى ينبغى ان يحرره انما يحوجه الى العبودية . بل انه يجعل تلك العبودية لازمة . واذا كانت الحضارة العلمية قد وصلت شيئا فشيئا الى فكرة المساواة بين جميع الناس فان الحضارة لاتستغنى عن شعب من العبيد يقوم بالعمل فى مناجمها وسككها الحديدية ومنشآتها ومصانعها وهذا لعمرى تناقض بل هو خطر قد يودي فى يوم قريب بحضارتنا تحت التأثير المزدوج للضرورات العملية والنظريات وكلاهما يفضى الى خاتمة واحدة حين تتضارب فكرة المساواة بحاجات الحضارة العملية .

وهنا استعان نيتشة برأيه فى أن دوام الحضارة لايكون الا بوجود طبقة من المستعبدين .

للبحث بقية .

عبد الحميد سالم

ظهر الجزء الأول من

اصل الانواع

وَنُشُوئُها بالانتخاب الطبيعى وحفظ الصفوف الغالبة فى التنازع على البقاء

فاطلبه من دار العصور ومن المكاتب الشهيرة